العبادة والإيمان والخُلق
لقاء مع محبّة الله

الأخت باسمة الخوري الأنطونيّة
دكتوره في لاهوت الكتاب المقدّس

مقدّمة

أخبرتني إحدى الأمّهاتِ أنّ ابنَها، ابنَ السبعِ سنواتٍ، خرجَ من الكنيسةِ بعدَ عبادةِ يوم الأحدِ ليعلنَ أمامَ عائلتِهِ أنَّه صارَ قادرًا على العدّ حتّى ٥٥٧١، وعندما سألَه والدُه لماذا لم يكملِ العدَّ، كان جوابُه أنَ عند هذا الحدّ انتهتِ العبادةُ!

دلَّت دراسةٌ أُجرِيَتْ في بعضِ كنائسِ الولاياتِ المتّحدةِ الأميركيّةِ أنَّ حوالى ٦٠٪ من الذين يلتزمون بالصلاةِ الليتورجيّةِ في كنائسِهم يعيشون خبرةَ "اللقاءِ الشخصيِّ باللهِ" من خلالِ الاحتفالاتِ الليتورجيّةِ التي يشتركونَ فيها. هذا يعني بأنَّ حوالى ثلثِ الملتزمين بهذه الصلواتِ الجماعيّةِ الاحتفاليّةِ لم يختبروا أبدًا حضورَ اللهِ في عبادتِهم. ثمّ أنَّ حوالى ثلثِ الذين قالوا بأنّهم اختبروا هذا اللقاءَ اعترفوا بأنّ خبرةَ لقائِهم باللهِ من خلالِ العباداتِ لا تتكرّرُ غالبًا.

لا أظنُّ بأنّ وضعَنا في لبنانَ والشرقِ الأوسطِ أو في العالمِ أسرِهِ أفضلُ؛ فهذه الدراسةُ تعبِّرُ عن حقيقةِ عيشِنا لعبادةِ اللهِ كلقاءٍ حميمٍ به، وتطرحُ علينا في الوقتِ عينه سؤالاً جوهريًّا: هل نسعى في صلاتِنا إلى الحضورِ أمامَ اللهِ ولقائِهِ وتمجيدِهِ ومحبّتِهِ، أم أنّ لنا حوافزَ أخرى للعبادةِ؟ وهل أخذَتِ اهتماماتُنا مكانَ إرادةِ اللهِ، وكلماتُنا مكانَ كلمتِهِ فأضعناه؟ من الطبيعيّ أن يكونَ لنا اهتماماتٌ نضعُها أمامَ اللهِ في صلاتِنا، لكنَّ الأساسَ في كلِّ عبادةٍ هو اللهُ بالذاتِ، وبحسبِ كلمتِه هو.

فما هي العبادة بحسب الكتاب المقدّسِ، وما هو ارتباطها بالإيمان، من جهةٍ، وبالحياة الخلقيّة، من جهةٍ أخرى؟

١– العبادة سجودٌ تعبيرًا عن الإيمان بالله

إن تساءَلْنا على ماذا تقوم العبادة، يجيب المزمور ٩٦: ١–٦: "بإعلانِ عظمة الرّبِّ الخالقِ"، إذ لا عبادة دون الوعي لعظمة الله "المرهوب...، الذي صنع السماوات. الجلال والبهاء أمامه، والعزّة والروعة في مقدسِه". أمام وعي الإنسان لهذه العظمة والقوّة والقدرة، أي الإيمان بأنّه الخالقُ المخلّص وحده، تأتي العبادة كجوابٍ طبيعيّ.

إضافةً إلى الفعل עָבַד، يستعمل الكتاب المقدّس بشكلٍ واسعٍ الفعل שָׁחָה الذي يعني "انحنى"، "سجد وَوَجْهُهُ إلى الأرض"، ونجده أكثر من ١٧٠ مرّةً في كامل الكتاب. يدلُّ هذا الفعل على الاحترام الواجب للرؤساء (بشرًا كانوا أم الله بالذات)، وكأنّ عبادة الله هي أن نحترمهُ، بمعنى الاعتراف بسيادته بسجودنا أمامه، وهو بالتالي أن نعترف بمكانتنا كمخلوقات نتلقّى منه كلّ شيءٍ؛ فالسجود هو إذًا الموقف الذي يلخّص كلّ الأفعال التي تعني العبادة، على ما تؤكّد التوراة: "لا تسجدوا (תִשְׁתַּחֲוֶה) لإله آخر لأنّي أنا الربُّ إلهٌ غيّور" (خر ٣٤: ١٤)؛ "إحذروا أن تُفتتنَ قلوبُكم فتزيغوا وتعبدوا آلهةً غريبةً (וַעֲבַדְתֶּם֙ אֱלֹהִ֣ים אֲחֵרִ֔ים)، وتسجدوا لها" (וְהִשְׁתַּחֲוִיתֶ֖ם לָהֶֽם؛ تث ١١: ١٦)[١].

يقدّم الكتاب المقدّس العبادة كواجبٍ مفروضٍ على البشر كافّةً، ويقدّمها على أنّها الوصيّة الأولى بين الوصايا العشر: "أنا الربُّ إلهُكَ الذي أخرجَكَ من أرضِ مصرَ، من دارِ العبوديّةِ، لا يكنْ لك آلهةٌ سواي. لا تصنعْ لك تمثالاً منحوتًا... لا تسجدْ لها ولا تعبدْها"، לֹא־תִשְׁתַּחֲוֶ֥ה לָהֶ֖ם וְלֹ֣א תָעָבְדֵ֑ם (خر

(١) مع السجود، رغمَ أنّه عنصر العبادة الأساسيّ تأتي الذبائح. منذ البدء قدّم هابيل بواكيرَ قطيعه لله (تك ٤: ٤)، وبنى نوح وإبراهيم وكلُّ الآباء مذابح ليعبدوا الله ويعلنوا اسمَه ويقدّموا له الذبائح والمحروقات.

٢٠: ٣-٦)؛ فالعبادة فرضٌ واجبٌ لأنّه يحقّ لله الخالق والمخلّص أن يتلقّى عبادة المخلوقات التي خلّصها. ولا يمكن لمن وعى وجود هذا الخالق المخلّص وآمن به إلا أن يعبده. إنّ العبادة (السجود) هي ردّةُ الفعل الطبيعيّة والمنطقيّة لهذا الوعي.

هذا ما يظهر في العديد من المزامير التي تشكِّل دعوة إلى العبادة تعبيرًا عن الأمانة في الإيمان بالله الأوحد؛ وهو ما يظهر من تخصيص السابع من كلِّ أسبوعٍ لعبادة الله والراحة من "أعمال هذا العالم" عبر الدخول في راحة الله: "اليومَ السَّابعِ سَبتٌ للرّبِّ إلهكَ. لا تَقُمْ فيهِ بعمَلٍ ما، أنت واَبنُك واَبنَتُك وعبدُك وجاريَتُك وبَهيمَتُك ونزيلُك الذي في داخلِ أبوابك، لأنّ الربّ في ستَّة أيّام خلَق السَّماوات والأرض والبحر وجميع ما فيها، وفي اليوم السَّابع استراح. ولذلك بارك الرّبّ يوم السَّبت وكَرَّسَه له" (خر ٢٠: ١٠-١١)؛ "حافظوا على أيّام السّبت لأنَّها علامَةٌ بيني وبينكُم مدى أجيالِكم، لتعلموا أنّي أنا الرّبُّ الذي قَدَّسَكُم" (خر ٣٠: ١٣). في هذا الإطار لطالما دان الأنبياء من لا يحترمون السبت وربّه، وطوّبوا من يقدّسونَه محبّةً بالله: "إنْ توقَّفْتَ عنْ عمَلِكَ في السَّبتِ ... يومَيَ المُقدَّسِ، ودَعَوتَ السَّبتَ نعيمًا وما قَدَّستُهُ أنا مجيدًا، وأكرَمتَهُ...، ولا نَطقْتَ باطلاً بكلامك، تبتهجُ بي أنا إلهُكَ، وعلى مشارف الأرض أرفَعُكَ ... ها فَمُ الرّبِّ تكلَّم" (أش ٥٨: ١٣).

لكنّ الكتاب المقدّس لم يكتف أبدًا بإدانة من يعبدون غير الله ويسجدون لآلهةٍ أخرى، بل طالَت الإدانة كلّ عبادةٍ فاسدةٍ تكتفي بمظاهر الطقوس والرتب، وتتعلّق بالطابع الخارجيّ للعبادات دون أيّة صلاةٍ حقيقيّةٍ تسعى إلى لقاء الله والشراكة معه ومحبّته. إنّه الخطر الذي يتهدّد كلّ الطقوس والاحتفالات، والذي حذّر منه الأنبياء على ما نقرأ في أشعيا: "وقال الربُّ: هذا الشعبُ يتقرّبُ منّي بفمِهِ ويكرّمني بشفتيهِ، وأمّا قلبُهُ فبعيدٌ عني؛ فهو يخافني ويعبدني بتعاليمَ وضَعَها البشر" (أش ٢٩: ١٣). وهو ما تعلنُه الرسالة إلى العبرانيّين: "بغير الإيمان

يستحيل إرضاء الله، لأنَّ الذي يتقرّب إلى الله يجب أن يؤمن بأنَّه موجودٌ وأنّه يكافئ الذين يطلبونُه" (٦: ١١). إنّ الأساس في العبادة إذًا هو القلب المؤمنُ وليس المظهر المتديّن.

٢- العبادة جوابٌ على لقاءٍ شخصيّ بالله

لكنّ الإيمان الحقّ، القائم على الوعي لحضور الله، مرتبطٌ بمبادرة الله نفسه الذي يكشف نفسَه للبشر.

هذا ما نجده في خر ٣٤: ٥-١٠ في لقاء موسى بالربّ: "نزِلَ الربُّ في السحاب ووقفَ عندَه هناك وأعلن له اسمهُ: "الربُّ"، ومرّ الربّ أمامَه ونادى: الربّ إلهٌ رحيمٌ حنونٌ بطيءٌ عن الغضب وكثير المراحم والوفاء. يحفظ الرحمة لألوف الأجيال، ويغفر الإثم والمعصية والخطيئة... فأسرع موسى وأحنى رأسه إلى الأرض وسجد (וַיִּקֹּד אַרְצָה)، **ساجدًا**" (וַיִּשְׁתָּחוּ)... التقى موسى الربّ وعرفَهُ...، فسجدَ له.

وهو ما حدث مع يشوع بن نون قبل دخول أريحا حيث نقرأ أنّ الشعب عبر الأردن وواجَه أريحا المدينة المحصَّنَه. وفيما يشوع يفكّر بكيفيّة مواجهتها، وجد نفسَه أمام رجلٍ بيده سيفٌ عرّف عن نفسِه بـ"رئيس جند الربّ"، "فانحنى يشوع حتّى الأرض (וַיִּפֹּל יְהוֹשֻׁעַ אֶל־פָּנָיו אַרְצָה)، وسجد" (וַיִּשְׁתָּחוּ؛ يش ٥: ١٣-١٥). مرّةً جديدةً يتكرَّر الفعلان "انحنى... سجد" تعبيرًا عن العبادةِ. فالرجل أمام يشوع هو ظهورٌ إلهيٌّ بالطبع، وسجود يشوع للعبادة بعد أن تعرّف إلى الله وقدرته ليس إلا تأكيدًا على طاعته "للرئيس جند الربِّ الفعليّ" وتعبيرًا عن عبادته له. بسجودِهِ يشهد يشوع ويعترف بأنّ الله هو من يعمل وهو الرئيس الحقيقيّ والأوحد لمعركة العبور من العبوديّة إلى الحرّيّة... أنّ العبادة هي الفاعل الحقيقيّ في نجاح مسيرة الخلاص. إنّ الإيمان بأمانة الله لمواعيده وعونه في تحقيقِها، على يد البشر، يُترجَمُ طبيعيًّا بحركة سجودٍ وعبادةٍ.

والأمر عينُه نجدهُ في الموقف الغريب الذي واجهَه جدعون. دعاه الله ليحارب مِدْيَنَ وما معه سوى ٣٠٠ رجلٍ. فوضعه في حالة همٍّ، وتساؤلٍ، وتردّدٍ. لطمأنته، طلب منه الله أن يزور مخيّم العدوِّ تحت ستر الليل فأطاع جدعون، وعندما سَمِعَ في خيمةٍ تفسير حلم أحد عسكر العدوِّ "سجد للربّ (וַיִּפֹּל יְהוֹשֻׁעַ אֶל־פָּנָיו אַרְצָה וַיִּשְׁתָּחוּ)، وعاد إلى مخيّمه وقال: قوموا لأنَّ الربَّ دفعَ محلَّة بني مِدْيَن إلى أيديكم" (يش ٥: ١٤). لم ينتظر العودة إلى مخيّمِه بل سجد للحال، حيث هو، متجاهلاً كلّ خطرٍ. إنّه الجواب الفوريّ على الوحي الذي كشفَه له الربُّ. ثمَّ عاد بعد ذلك إلى معسكره ليتمّم ما خطّطه الله.

والأمر عينُه عاشه الملك داود؛ فبعد خطيئتِه مع بتشابع ومواجهته لهذه الخطيئة أمام النبيّ ناتان واعترافه بها، وضعَتْ بتشابع طفلاً، لكنّه مات، ففهم الملكُ الحدث الفاجعة على أنّه إدانة الله لهذه الخطيئة، وأدهش موقفه الجميع؛ ففي أثناء مرض الطفل صام داود وبكى وصلّى، أمّا بعد موته فإنّه "قام عن الأرض واغتسل وسرّح شعرَه، وغيّر ثيابَه، ودخل بيت الربّ فسجدَ (וַיָּבֹא בֵּית־יְהוָה וַיִּשְׁתָּחוּ)، ورجع إلى قصره وطلب طعامًا فأكل" (٢ صم ١٢: ٢٠). هو في حدادٍ على موت طفله، لكنَّه قبْل أيّ شيء يتحضّر للمثول أمام الله في بيته لعبادته. يسجد، فيعلن بذلك قبوله سيادة الربّ على كلّ أحوال حياته حتّى في آلامه وفي صعوبة الحكم المبرم عليه. في كلِّ الأحوال يسجد ويعبد... ويُنهي الحداد.

فهم داود ما فهمه أيوب الذي خسر كلّ شيءٍ، "فقام وشقَّ ثوبَهُ، وجزَّ شعرَ رأسِهِ، ووقعَ عن الأرضِ **ساجدًا** (וַיִּפֹּל אַרְצָה וַיִּשְׁתָּחוּ)، وقال: "عريانًا خرجْتُ من بطنِ أميّ، وعريانًا أعودُ إلى هناك. الربُّ أعطى والربُّ أخذَ، تباركَ اسمُ الربِّ" (أي ١: ٢٠–٢١).

أن نعبد الله هو أن نعترف بسيادته على كلِّ ما في حياتِنا. هو أن نضعَ حياتَنا بين يديه وأن نمجّده في كلِّ الأحوالِ، لأنَّ أساس العبادة هو الاعتراف بعظمة

الله وسيادته، وإعلان ذلك في حضرتِه، وأمام العالم بأسرِه: "نادوا في الأمم يملك الربّ، يثبّتُ الكون فلا يتزعزع، ويدين الشعوب بالاستقامة...، لأنّه آتٍ ليقضي في الأرض، يقضي في العالم بالعدل، وفي الشعوب بالأمانة" (مز ٩٦: ١٠-١٣).

٣- العبادة حياةٌ خلقيةٌ تُترجِم الإيمان والسجود

الإيمان إذًا هو أساس العبادة لكنّ هذا الإيمان وهذه العبادة يُترجَمان في حياةٍ بحسب إرادة الربّ. لا فصل بين العبادة والحياة القويمة في الطريق إلى الحياة والفرح الحقّ. في الحقيقة هذا ما يعلنُه الكتاب المقدّس في سفر العبادة الأوّلِ، سفر المزامير؛ ففي أوّل صلاةٍ مزموريّةٍ يوجّهُ الله الكلام للمصلّي معلنًا له كيفيّة لقائه والطريق الأكيدة للوصول إلى الشراكة معه والحصول على الفرح الحقِّ؛ فإن كان السجود والصلاة جوابًا على كشف الله لذاتِه، فها هو المزمور الأوّل يبدأ بكلمةٍ يوجّهُها اللهُ إلى المؤمن الذي يبغي الصلاة، لتأتي صلاتُه جوابًا على مبادرة الله الذي يكلّمُه. هذه الكلمة الأولى في سفر الصلاة ليسَت صلاةً بل "طوبى" يعلنُها الله لمن يريد الصلاة، على أساس حياته الخُلقيّة.

العبادة في سفر الصلاة هي دليل المؤمنين في طريق الفرح الحقِّ، طريق الهناء، وكأنّ سفر المزامير، ليس سوى دعوةٍ إلى لقاء اللهِ، ودليلٍ في الطريق الذي يقود إلى هذا اللقاء، طريق خُلقيّة بعيدة عن الشرّ.

٤- عبادة وإيمان حياتي بحسبِ المزمور الأوّل

ربّما ننتظر كمؤمنين من افتتاحيّة كتاب العبادة الأوّل في الكتاب المقدّس، أحكامًا وقوانين ترسم الطريق المؤدّي إلى عبادةٍ مقبولةٍ عند الله، لكلّ مَنْ يفتح هذا الكتاب ليصلّي، أو ربّما ننتظر أقلَّهُ نصًّا يشكّل مثالاً لصلاةٍ مرضيّةٍ عند الله. فإذا بنا نفتقر إلى الأحكام، كما نفتقر إلى نصّ صلاة مثاليّة، لنواجه مزمورًا يضعنا أمام سيرة حياة مَنْ يتوق إلى الصلاة للقاء الله، وكأنَّ هذا النبيّ

كاتب المزمور يحذّر المصلّين منذ البداية بأنّ صلاتَهم وعبادتَهم هي لا بدّ باطلةٌ خارج الإطار الذي يضعه في مقدّمة كتابه، وإطار هذا الكتاب ليس سوى سلوكٍ حياتيّ لائقٍ بمن نتوجَّهُ إليه في عبادتنا، والتزامٍ بطريقٍ أكيدةٍ نحوَهُ تؤمّن للمصلّي الحياة والفرح.

في المزمور الأوّل دعوة إلى الاختيار بين طريقين: طريق المؤمن الذي يضع ثقتَه بالله ويعمل على تحقيق إرادته، وبين طريق الأشرار الذين لا إيمان لهم والذين يختارون رفض التعرّف إلى الله وقبول كلامه.

في هذا المزمور يبدو المؤمن وحده، يسير عكس التيار، لكنّه يسير واثقًا نحو الحياة والهناء الدائم، في حين نرى الأشرار، على عكسه، يسيرون في طريقِهم إلى العدم كما الريشة في مهبِّ الريح. بين الطريقين لا مجال للمساومة ولا للغلط، فالمطلوب هو خيار واضح وصريح تقوم عليه حياة الإنسان ومستقبله، إذ إنّ خيارات الإنسان تبنيه أو تفنيه. فهو يقف في حياته في مواجهة قراراته البنّاءة أو الهدّامة تجاه ذاته، وتجاه الآخرين على ما يعلنه سفر تثنية الاشتراع: "أنظروا، ها أنا اليوم جعلْتُ بين أيديكم الحياة والخير، الموت والشرّ. فإذا سمعْتُم كلام الربِّ إلهِكُم الذي أنا أكرّمُكم به اليوم، وهو أن تحبّوا الربّ إلهَكُم، وتسلكوا في طرقه، وتعلّموا بوصاياه وسننه وأحكامه، فأنتم تحيون وتكثرون وتنالون بركة الربّ...، وإن لم تسمعوا لي وضللتم وسجدتم لآلهة أخرى وعبدتموها...، فإنّكم تبيدون" (تث ٣٠: ١٥-٢٠). إنّ هذا الخيار بين الحياة والموت لأمرٍ متجدِّدٍ يوميًّا، لأنّه مسيرة حياة نحو الطوبى.

في الحقيقةِ تتّخذ الطوبى في المزامير معنى الفرح الناتج عن الإيمان الحقّ، من جهة، والحياة المستقيمة بحسب إرادة الربّ، من جهة ثانية؛ فالهناء هو "للمحتمين به" (٢: ١٢)، لكلّ "من يحتمي به" (٣٤: ٩)، ولكلّ "من يؤدّبه الربّ ويعلّمه شريعته" (٩٤: ١٢). إنّه "لمن يخافُ الربّ ويسرُّ بوصاياه جدًّا"

(١١٢: ١)؛ فإنْ بحثَ الإنسان عن الفرح فهو لن يجده إلاّ في لقاء الربّ الذي لا يقبل المرائين الذين يحتمون بالمظهر المتديّن وقلبُهم بعيد عن الله، وحياتهم وخُلُقهم بعيدان عن تطبيق وصاياه؛ فإرادة الله واضحة: "كونوا لي قدّيسين لأنّي أنا الربّ قدّوس، اتّخذتكم... لتكونوا لي" (لا ٢٠: ٢٧). هذا ما تلخّصُه الرسالة الثانية إلى تيطس بالإعلان أنّ "نعمةَ الله، ينبوعُ الخلاص لجميع البشر، **ظهرَتْ** لتعلّمَنا أن **نمتنع** عن الكفر وشهوات هذه الدنيا **لنعيش** بتعقّلٍ وصلاحٍ وتقوى في العالم الحاضر" (تيط ٢: ١١-١٢)، وهو ما يشكّل جوهر المزمور الأوّل.

ربما نظنّ خطأً أنّ ما يطلبه المزمور الأوّل هو أفعالٌ وأعمالٌ يبرهن المؤمنون من خلالها أنّهم أقوياءٌ قادرونَ على مقاومةِ كلّ الشرور والقيام بالبطولات؛ هنا أيضًا يفاجئنا المزمور في وصفه للبار، لا بما يعمله من وصايا وسنن وأحكام، بل بحسب ما يهوى: "في شريعةِ الربِ هواهُ، وبها يلهجُ نهارًا وليلاً، فيكونُ كشجرةٍ مغروسةٍ على مجاري المياه، تعطي ثمرها في أوانه، وورقها لا يذبلُ، وكلّ ما يعملُه صالحٌ" (آ ٢-٣). بارُّ العبادة الحقّة هو من يحيا بكلّ كلمةٍ تخرج من فم الله. إنّه الإنسان الذي اختار شريعة الله محبّة بالله، فيبقى على لقاء دائم به، من خلال حياة سلوكيّة تليق به.

لكنّ لهذا الهوى شروطًا، أوّلُها **فهمُ معنى الشريعة بالعمق**؛ فهي أبعد من أن تكون مجرّد سلسلةٍ من الوصايا والأوامر المفروضة على الإنسان تحت طائلة حكم الله المبرم على من يعصاها. إنّها بالأحرى كلمةُ حبٍّ يوجّهُها اللهُ إلى البشر لينير لهم الطريق ويعطي حياتَهُم معنى. إنّها كلمةٌ فيها يكشف اللهُ عن نفسه للبشر، معلنًا لهم محبّتَهُ لهم، وموضحًا لهم الطريق إلى لقائه والوصول إلى الحياة الحقّة والفرح الحقيقيّ؛ فأن يختار الإنسانُ الشريعة هو أن يختار هذا الفرح الذي يقدّمُه الله مجانًا.

وهو ما يفترض ثانيًا **موقفًا واضحًا** بحسب كلمة الشريعة الأولى: "لا يكنُ لك إلهٌ سواي" (خر ٣: ٢٠)، وعلى ما يؤكّد يسوع في مت ٦: ٢٤: "لا تعبدْ ربيّن".

يبدو هذا الخيار سلبيًّا في وجهِهِ الأوّل؛ فهو يفترض تخلّيًا وامتناعًا عن نمط تفكيرٍ ونمط حياةٍ توافقُه. لكنّه في الحقيقة تخلٍّ عن الضمانات الكاذبة والقيم الزائلة، يقود إلى الوجه الآخر الإيجابيّ لهذا الخيار: التعلّق بالله واختيار كلمته؛ فبدلاً من أن يجد البارُّ فرحَهُ بالشهوة أو السلطة أو الغنى، فإنّه يجدُهُ بتعليم الربّ والتأمّلِ به ليلاً ونهارًا، لأنّه يعلمُ ويثقُ بأنّه الطريقُ والحقّ والحياة (يو ١٤: ٦). يعرف البارّ كنوز كلمة الله، فيعرف سبل لقائه، كما النبيّ إرميا: "سَمِعْتُ كلامَكَ فَوَعَيتُهُ، فكانَ لي كلامُكَ سرورًا وفرَحًا في قلبي، فأنا دُعيتُ بِاسْمِكَ، أيُّها الرّبُّ الإلهُ القديرُ. لا أجلِسُ في مجلسِ المازحينَ لاهيًا" (١٥: ١٦-١٧)؛ وكما النبيّ ميخا: "بماذا أتقدَّمُ إلى الرّبِّ وأكافئُ الله العليَّ؟ أبمحرقاتٍ أتقدَّمُ إليهِ...؟ أخبرتُكَ، يا إنسانُ، ما هوَ صالحٌ وما أطلبُ مِنكَ أنا الرّبُّ: أنْ تصنعَ العَدلَ، وتحبَّ الرَّحمةَ، وتسيرَ بتواضعٍ معَ إلهِكَ" (٦: ٦-٨).

يفهم البار أنّ العبادة الحقّة تتخطّى الطقوس والاحتفالات الدينيّة والخِدَم الليتورجيّة، لتتجذّر في نوعيّة حياة تتماشى مع إرادة الربّ، حياة "استقامة" وطيبة ولقاء شخصيّ بالله. حياة كهذه هي مفتاح الفرح!

منذُ البدءِ يعلن النبيّ العابد المصلّي في مزموره الأوّل أنّ الصلاة ليست مجرَّد كلماتٍ، مهما كانت عميقةً تمسّ الكيان، ولا تعبيرًا نظريًّا عن الإيمان مهما كان هذا الإيمان قويًّا وثابتًا؛ فصلاةُ المؤمن هو حياةٌ ملتزمةٌ، هي مسيرةٌ تفترض، أوّلاً، التقدّم سلبيًّا: عدم السلوك في مشورة الأشرار، عدم الوقوف في طريق الخاطئين، وعدم الجلوس في مجلس المستهزئين؛ وتفترض، ثانيًا، الالتزام بخطواتٍ تؤمّنُ النموَّ في حياةٍ ثابتةٍ ومثمرةٍ ودائمةٍ. وهكذا يكون الشرّيرُ الذي يسلك، ويقف، ويجلس حيث شريعة الله مرفوضةٌ ومرذولةٌ، كالقشّ الزائل، في حين يكون البارّ كالشجرة النامية الباقية.

يأخذ وصف البارّ كامل مساحة المزمور؛ ففي حينِ يُذكَر الأشرار بصيغة الجمع، وكأنَّ لا وجود للشرّير إلا كفردٍ في شلّةٍ، فإنّ البارّ، ولو أنّه عضوٌ في

"جماعة الأبرارِ"، فإنّه حُرٌّ في خياراتِه: "لا يسلكُ...، لا يقفُ...، لا يجلسُ"، نظرًا إلى علاقته الشخصيّة بشريعة الله التي فيها يتجذّر فيثبت. إنّ البارّ في هذا المزمور هو إنسان الكلمة الإلهيّة، يقرأُها، يهذّ بها، ومنها تنبثق خياراتُه الجوهريّة وقرارته الحياتيّة في مواجهةِ صعوبة التمييز بين القيم وضرورتها: محبّة الله تعني محبّة الخير، وبالتالي محبّة القريب.

في خضمّ الصراعات الوجوديّة التي يحياها الإنسان وفي متاهات مفارق الحياة، لا مجال لِلضياع لأنّ كلمة الله هي الدليل إلى طريق الهناء لمن يتأمّلُها ويعتصم بها، والله لا يترك طالبيه. ولو عاش هؤلاء المحن والصعوبات، فإنّ لقاءهم الحميم بالله أكيدٌ لأنّهم "له وحدَه" يحيون (مز ٢٢: ٣٠).

خاتمة

في الحقيقة طالما شكّلَت جدليّة العلاقة بين العبادة والإيمان والخُلُق جوهرًا لتعليم الأنبياء والرسل والإنجيليّين، ولا زالَت تأخذ موضوعًا طاغيًا في لاهوت أيّامنا الحاضرة في الكرازة والتعليم. نرصد في يوحنّا الفصل الرابع ورود فعل سجد (proskuneo) عشر مرّات من أصل ١٣ مرّة في الإنجيل الرابع، و٥٩ مرّة في كامل العهد الجديد، ممّا يشيرُ إلى أنّ هذا النصّ هو الإعلان الأهمّ حول العبادة المسيحيّة. في هذا النصّ تطرح المرأة السامريّة على المسيح جوهر ما يعترض إيمانها: أين، وكيف، ولمن تتمَّ العبادة؟ يوضح يسوع في جوابه (آ٢٣) أنّ أساس العبادة هو اللقاء الحقّ بالله من خلال "عبادةٍ بالروحِ والحقّ"، جوابٌ صعبٌ لبشرٍ يحتاجون إلى التعبير عن عبادتِهم الروحيّة الحقّةَ بشريًّا!

أوجدَت الكنائس عبر العصور عناصر للعبادة (ربّما أمكنَنا تلخيصُها بخمس بحسب سفر الأعمال: عماد، وتعليم رسل، وشراكة أخويّة، وكسر خبز، وصلاة)، وأوجدت أماكن للعبادة (في الهيكل، في البيوت...)، يمكن أن تحقّق هذا الهدف بنعمة الروح الذي يهبّ حيث يشاء. لكن، وفي عودة

إلى السؤال الذي طرحتُه في بداية هذا المقال: "هل نسعى في عبادتِنا لله إلى الحضور أمام الله ولقائه وتمجيده ومحبّته، أم أنّ لنا حوافز أخرى للعبادة؟"، أقول أنّه لا بدَّ لنا اليوم من اثنين:

أوّلاً: العودة إلى البشرى الجديدة القائمة على أنّ يسوع قدّم نفسه ذبيحةً عنّا فصرْنا جميعًا في حضرته بالإيمان به. بالروحِ والحقّ نقترب منه ونتّحد به "بقلبٍ صادقٍ وإيمانٍ كاملٍ وقلوبٌ مطهّرةٌ من سوءِ النيّةِ وأجسادٌ مغسولةٌ بماء طاهرٍ" (عب ١٠: ٢٢).

ثانيًا: وعي أهمّيّةِ الالتزام بحياةٍ سلوكيّةٍ بارّة تصبح هي الذبيحة الحيّة المقدّسة المَرْضِيّة لله (رو ١٢: ١)، "لأنّ الحمدَ هو الذبيحةُ التي تمجّدُني، يقول الربّ، ومن قوّمَ طريقَه أريه خلاصيّ" (مز ٥٠: ٢٣).